

الصلات الفقهية بين القيروان والمدينة المنورة

أ.د. خليفة بابكر الحسن

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مدخل:

كانت القيروان منذ تأسيسها مرتبطة بالعلوم والمعارف الاسلامية الأساسية من قرآن وحديث وفقه، وكان ارتباطها بتلك العلوم والمعارف معادلاً لارتباط تأسيسها بالجانب «الاستراتيجي» في أن تكون قاعدة للفتح الاسلامي في منطقة المغرب النائية عن حواضر الخلافة في المشرق الاسلامي ومراكز السلطة فيه آنذاك: وذلك لخاصية التداخل المطلق الذي يصعب فيه - عادة - الفصل في الفتح الاسلامي بين الأغراض الحربية والأهداف الثقافية؛ لأن الأغراض الحربية ما هي - في حقيقة أمرها - إلا الوجه المباشر لنشر الإسلام عقيدة وشريعة⁽¹⁾.

ولعل التمازج الحميم بين الهدفين يبدو واضحاً مما قاله القائد المظفر عقبة بن نافع الفهري⁽²⁾ لأصحابه عندما أراد تأسيس القيروان في سنة 50 هـ «إن إفريقيا إذا دخلها إمام أجابوه إلى الاسلام فإذا خرج منها رجع من كان أجاب منهم لدين الله إلى الكفر، فأرى لكم - يا معشر المسلمين - أن تتخذوا

(1) في هذا ورد على بعض المستشرقين الذين يرون أن دوافع المسلمين للفتح كانت التماس المغنم - راجع في هذا الرأي ومناقشته القيروان ودورها في الحضارة الإسلامية للدكتور محمد محمد زيتون ص 18، والدولة الأغلبية التاريخ السياسي للدكتور محمد الطالبي ترجمة المنجي الصيادي ص 26 وما بعدها.

(2) هو عقبة بن نافع بن عبد القيس الفهري ولد قبل الهجرة بسنة، كان قائداً شجاعاً وعابداً صالحاً، اشتهر بحملاته على إفريقية وبتأسيسه للقيروان توفي سنة 63 هـ.

بها مدينة تكون عزاً للإسلام إلى آخر الدهر⁽¹⁾.

ولهذا أيضاً كان من أول ما بادر عقبة به - عند تأسيسه للقيروان - بناء المسجد الجامع تأسيساً بالرسول ﷺ الذي بنى المسجد النبوي إبان هجرته للمدينة. ولا شك أن المسجد هو المدرسة الإسلامية الأولى التي يمتد منها إشعاع العلم والفقه، والمعهد الذي يحرص المسلمون على تعهد أمور دينهم فيه علماً وعملاً.

وقد كان كل ذلك واضحاً في ذهن عقبة والصحابة الذين كانوا معه؛ ولهذا قالوا له حينما أراد تحديد قبلة الجامع الذي بناه: «إن أهل المغرب يضعون قبلتهم على قبلة هذا الجامع» فأجهد عقبة نفسه في تقويمه⁽²⁾.

ولعل مما يؤكد ما سبق أن عقبة لما عاد للقيروان في امارته الثانية - بعد أبي المهاجر - وسعى في عمارة القيروان جمع الصحابة الذين كانوا معه وكان عددهم خمساً وعشرين صحابياً وطاف بهم حول «القيروان» داعياً وهم يؤمنون على دعائه الذي قال فيه: «اللهم املأها علماً وفقهاً وأعمرها بالمطيعين والعابدين واجعلها عزاً لدينك، وذلاً لمن كفر بك، وأعز بها الإسلام وامنعها من جبابرة الأرض»⁽³⁾.

ولنبل الغرض الذي أسس عقبة من أجله القيروان، وتصميمه عليه، ودعائه الله أن يحقق ما أراد كانت القيروان ثمرة طيبة ونتاجاً حسناً لجهود عقبة وجهود المسلمين الذي سبقوه في فتح إفريقية⁽⁴⁾، حيث غدت مستقراً

(1) أعلام الفكر الإسلامي في المغرب العربي للفاضل بن عاشور ص 5.

(2) الرياض 12:1 نقلاً عن مدرسة الحديث في القيروان من الفتح الإسلامي إلى منتصف القرن الخامس الهجري، للأستاذ حسين محمد محمد شواط 50:1.

(3) طبقات علماء إفريقية وتونس لأبي العرب محمد بن أحمد بن تميم القيرواني تقديم وتحقيق د. علي الشابي ونعيم حسن اليافي ص 56.

(4) بدأت حملات المسلمين على إفريقية بفتح «برقة» سنة 22 هـ وطرابلس سنة 23 هـ وفي سنة 27 هـ غزاها عبدالله بن السعد بن أبي السرح كما غزاها معاوية بن خديج سنة 34 هـ وسنة 45 هـ وهي الغزوة المشهورة التي أعاد بها معاوية فتح إفريقية مدينة =

للفاتحين ومنطلقاً للجهاد لفتح المغرب كله والأندلس في قابل الأيام، كما أنها كانت بوتقة للانصهار بين العناصر العربية الوافدة والعناصر المحلية المقيمة في إطار الإيمان بالاسلام والتطبيق لتعاليمه الاجتماعية السامية فتزاوجوا وتداخلوا ونشط التعامل بينهم كما أنهم قبلوا بينهم عناصر لا تؤمن بالاسلام كاليهود والنصارى في إطار سماحة الاسلام ومساواته وعدله⁽¹⁾. هذا فضلاً عن أنها بما عمرت به من علم وخير أغرت الناس بشد المطايا إليها من كل مكان مما جعلها تغص بالفقهاء والمحدثين والمتطوعين والعابدين والنسك والزاهدين⁽²⁾.

من كل ذلك تكون نسيج اجتماعي راق بالقيروان سمته النزوع إلى الخير، والوفاء بالعهد، والتخلي عن الشبهات واجتناب المحارم⁽³⁾.

ولا شك أن مجتمعاً هذه صفته، وذلك سمته لا بد من أن يهتم بالعلوم والمعارف الاسلامية لضبط حركته وللمحافظة على ما يريده لنفسه من السلامة وحسن المنقلب؛ ولهذا كان اهتمام القيروانيين مبكراً بالقرآن والحديث والتفسير والرقائق والفقه.

ولعل من العوامل التي ساعدت على نشاط الحركة الفقهية على وجه الخصوص - في القيروان - فوق العوامل العامة السابقة :

1 - توفر المادة التي يقوم عليها الفقه والمتمثلة في القرآن الكريم والحديث النبوي؛ فالكتاتيب المخصصة لتعليم القرآن عرفت القيروان منذ عهد الصحابة: نقل المالكي عن أبي الحسن الدارقطني بسنده إلى غياث بن

= مدينة حتى وصل جبل القرن وهو موضوع قريب من موضع القيروان فجعله موضعاً لمعسكره.

(1) راجع القيروان عبر عصور الحضارة الإسلامية في المغرب العربي للدكتور الحبيب الجتاهي ص 137.

(2) الرياض 13:1.

(3) راجع وصف الإدريسي لها في مدرسة الحديث 47:1.

أبي شبيب قال: كان سفيان بن وهب صاحب رسول الله ﷺ يمر بنا ونحن غلمة بالقيروان فيسلم علينا ونحن في الكتاب وعليه عمامة قد أرخاها من خلفه⁽¹⁾.

ومضت في ازدهارها - بعد ذلك - في العصور اللاحقة وكان الطلاب يتلقون فيها - بالإضافة إلى تعلم الهجاء والقراءة وحفظ القرآن - الحديث النبوي، ومبادئ الفقه والعقيدة والآداب الإسلامية؛ ولهذا نجد ابن أبي زيد القيرواني - الذي جاء في عصر متأخر (ت 361 هـ) يؤلف رسالته الجامعة بناء على طلب شيخه محرز بن خلف الذي كان معنياً بتأديب الصبيان وتنشئتهم.

بل إن تلك الكتابات بكثرتها وحرص الناس عليها شكلت ظاهرة إجتماعية وتعليمية هامة لفتت أنظار العلماء والمصنفين إلى التصنيف فيها، ووضع الضوابط الخاصة بها فكتب فيها محمد بن سحنون (ت 256 هـ) كتاب المعلمين⁽²⁾ وكتب عنها علي بن محمد القابسي (ت 403 هـ).

وأما الحديث النبوي فقد كانت روايته شائعة بالقيروان؛ إذ أن الصحابة الذين نزلوها كان عددهم كبيراً قال ابن عذاري: «دخل إفريقية من أصحاب رسول الله ﷺ ناس كثير»⁽³⁾.

ومما يدل على انتشار رواية الحديث بالقيروان ما نلمحه في وصية عقبة لأولاده بالآلا يقبلوا الحديث عن رسول الله إلا من ثقة⁽⁴⁾.

ولا شك أن توفر المعرفة بالقرآن والحديث يمثل قاعدة ثابتة لازدهار الحركة الفقهية في القيروان على أنه لا بد من الإشارة هنا إلى أنه قد يصعب وبخاصة في المراحل الأولى من عمر الفقه في القيروان فصله عن الحديث إذ أن الفقه في تلك المرحلة كان يؤخذ عن طريق الرواية روى خالد بن أبي

(1) الرياض 91:1 ومدرسة الحديث 138:1.

(2) تراجم أغلبية مستخرجة من مدارك القاضي عياض تحقيق محمد الطالبي ص 173.

(3) البيان المغرب 8:1 ومدرسة الحديث 464:2.

(4) التمهيد لابن عبد البر: 45 ومدرسة الحديث 468:2.

عمران قال: سألت سليمان بن يسار عن النفل في الغزو فقال: لم أر أحداً غير معاوية بن خديج نفلنا بأفريقية النصف بعد النصف ومعنا من أصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين الأول ناس كثير فأبى جيلة بن عمرو الانصاري أن يأخذ منه شيئاً⁽¹⁾.

2 - وقد أزر توفر المادة الأساسية للفقهاء من قرآن وحديث عامل آخر أدى إلى نشاط الحركة الفقهية في القيروان وهو الحركة العمرانية التي ازدهرت بالمدينة - مع مرور الأيام -، والحركة التجارية الناشئة عن تخصص القيروان في بعض الصناعات الحرفية المميزة التي تحمل طابع القيروان وتعكس ثقافتها.

والازدهار العمراني والتجاري لا بد من أن يطرح قضايا تستدعي أحكاماً فقهية لمعالجتها، ومن شأن ذلك أن يذكي حركة الفتوى والفقه ويجعلها أكثر اتساعاً وانبساطاً.

3 - أن القيروان - كرسيفاتها من حواضر العالم الإسلامي كان لها أسلوبها الإداري، إذ أنشأ فيها حسان بن النعمان⁽²⁾ الدواوين المختلفة مثل ديوان الخراج وديوان الرسائل (البريد). وديوان العطاء وديوان السكة «النقد» كما كان لها نظام قضائي يتمثل في القضاء وديوان المظالم، والحسبة.

وهذا الإطار الإداري والقضائي يحكمه الفقه لأنه قانون الدولة. وازدهاره - بلا شك - يؤدي إلى ازدهار الفقه واتساع آفاقه.

4 - أن الولاة الذين كانوا يقدون على القيروان لتولي الإمارة فيها كانوا يصطحبون معهم - عادة - مجموعة من العلماء لاستشارتهم أو يرسلون لطلبهم من المشرق لهذا الغرض كما أنهم كانوا في بعض الحالات يجلبون

(1) طبقات علماء إفريقية وتونس ص 70، 71.

(2) القائد الذي أرسله عبد الملك بن مروان على رأس جيش عظيم لاستعادة أفريقية وإخضاعها.

كتب الفقه منه ، وكل تلك عوامل تؤدي إلى ازدهار الفقه ونشاطه⁽¹⁾.

5 - إن الفقهاء كانوا ذوي مكانة مرموقة في المجتمع القيرواني ، حيث كانوا موضع الاحترام والاجلال لهم تقديرهم ونفوذهم الأدبي يدرسون الناس أحكام دينهم ويفتونهم ، ويقضون بينهم ويصلون على موتاهم ، ومن شأن ذلك أن يدفع الناس في عمومهم إلى الاهتمام بالفقه .

6 - وأخيراً فإن من عوامل ازدهار الفقه الاسلامي في القيروان تنامي الصلات الفقهية بين القيروان وحواضر العالم الاسلامي الأخرى - آنذاك - وهو ما يبسط هذا البحث القول فيه معنياً بالصلات الفقهية بين القيروان والمدينة المنورة على وجه التحديد .

(1) راجع مدرسة الحديث 43:1 ، 54 .

الصلات الفقهية بين القيروان والمدينة المنورة:

الحديث عن الصلات بين القيروان والمدينة المنورة لا ينفي أن للقيروان صلات مع مراكز العلم الأخرى التي كانت معروفة آنذاك الكوفة والبصرة وبغداد والشام ومصر؛ فقد كان للقيروان صلات مشهورة وذات أثر بين مع تلك المراكز إلا أن صلتها بالمدينة كانت أسبق من جهة، كما أن المدينة كانت هي صاحبة الأثر والفضل على تلك المراكز نفسها من جهة أخرى، ومن صور ذلك الأثر والفضل ما رواه الامام مالك: «كان ابن مسعود يسأل في العراق عن شيء فيقول فيه ثم يقدم المدينة فيسأل فيجد الأمر على غير ما قال فإذا رجع لم يحط رحله ولم يدخل بيته حتى يرجع إلى ذلك الرجل فيخبره بذلك»⁽¹⁾.

وعبدالله بن مسعود كما هو معلوم - هو امام أهل العراق في إطار فتاواه وفقهه تشكل فقه العراقيين الذي انتهى إلى الامام أبي حنيفة.

وروى أبو يوسف أيضاً في الآثار: «أن يزيد ابن معاوية أو خليفة غيره كتب إلى أهل المدينة يسأل عن صلاة الخوف فكتب إليه بقول ابن عباس (رضي الله عنهما)»⁽²⁾. وأثر أن مروان بن الحكم أتى بإنسان قد اختلس فأراد قطع يده فأرسل إلى زيد بن ثابت فقال زيد بن ثابت ليس في الخلصة قطع⁽³⁾.

(1) ترتيب المدارك 38:1.

(2) الآثار للإمام أبي يوسف ص 76.

(3) الموطأ بشرح السيوطي 177:2.

واشتهر عن عمر بن عبد العزيز أنه كان يكتب إلى أهل الأمصار يعلمهم السنن والفقه ويكتب إلى أهل المدينة يسألهم عما مضى لعله يعمل بما عندهم⁽¹⁾.

وفيما وراء ذلك فقد عرف أهل المدينة الرحلة إلى الأمصار الأخرى نشرأ لما عندهم من السنن والفقه وفي ذلك يروي التاريخ أن عبد الملك بن مروان، وقبيصة بن ذؤيب رحلا إلى الشام، وذهب إلى العراق في عهد - أبي جعفر المنصور - هشام بن عروة، ومحمد بن إسحق، ويحيى بن سعيد، وربيعه ابن أبي عبد الرحمن، وحنظلة ابن أبي سفيان الجمعي، وعبد العزيز ابن أبي سلمة الماجشون⁽²⁾.

كما عرف الناس الرحلة إلى المدينة لذات الغرض، ولعلّه مما شجع على الرحلة إلى المدينة نفسها أن الآخذين عنها كان يستبين فضلهم على غيرهم حالما يرجعون.

قال مجاهد وعمر بن دينار وغيرهما من أهل مكة: «لم يزل شأننا متشابهاً حين خرج عطاء بن أبي رباح إلى المدينة فلما رجع إلينا استبان فضله علينا⁽³⁾».

لعل الشواهد السابقة تكشف لنا عن حاجة الأمصار المختلفة للمدينة المنورة كما أنها تكشف عن فضل المدينة عليها، والقيروان شأنها شأن سائر الأمصار الإسلامية الأخرى كانت في حاجة إلى الصلات مع المدينة إن لم تكن حاجتها إلى ذلك، أشد لأن الأمصار الأخرى تأسست فيها مدارس فقهية خاصة معتمدة على مرويات الصحابة والتابعين الذين نزلوها فكان لها ضرب من الاستقلالية فالعراق لها اتجاه في الفقه، ومصر لها اتجاه، والشام له اتجاه وذلك - بلا ريب - يغني عن الرحلة إلى المدينة إلا في بعض الأحوال أو

(1) ترتيب المدارك: 39:1، ومناقب الإمام مالك للزواوي ص 52.

(2) صحة أصول مذهب أهل المدينة لابن تيمية ص 26.

(3) ترتيب المدارك 41:1.

يجعل - على الأقل - الحاجة إليها أدنى ، أما القيروان فقد كان اعتمادها غالباً على الفقه المدني ؛ ولهذا ظلت صلتها بالمدينة شديدة وقوية من جهة ، وموصولة الحلقات من جهة أخرى .

1 - بداية الصلات بين القيروان والمدينة :

يمكن مد الصلات بين القيروان والمدينة إلى عصر مبكر ، وقد تكون من العوامل التي مهدت لتلك الصلات وفود بعض الصحابة والتابعين مع حملات الفتح الأولى حتى قبل تأسيس القيروان نفسها فـعبدالله بن السعد بن أبي سرح كان معه عدد من الصحابة وكبار التابعين تذكر المصادر بينهم من فقهاء المدينة عبدالله بن عمر بن الخطاب وعبد الرحمن بن أبي بكر الصديق⁽¹⁾ . كما أن عقبة بن نافع كان معه خمسة وعشرون من الصحابة عند تأسيسه للقيروان ذكرت المصادر بينهم عبدالله بن عمر وعبد الرحمن بن أبي بكر الصديق - أيضاً - وكثيراً من الصحابة الآخرين كما أن الدباغ يذكر في المعالم اثني عشر صحابياً آخرين نزلوا أفريقيا يصفهم بأنهم من صغار الصحابة⁽²⁾ .

وفي أخذ أهل القيروان عن هؤلاء الصحابة تذكر المصادر أن قوماً من أهل القيروان جاءوا إلى عبدالله بن عمر فلما أرادوا أن يفارقوه قالوا له زدنا حديثاً ننتفع به⁽³⁾ وسؤال القيروانيين لعبدالله بن عمر وهو من فقهاء المدينة المعروفين فيه دلالة على حرص القيروانيين على فقه أهل المدينة الذي كانوا يأخذونه من خلال المرويات ، بل أن عبدالله هذا أقام بينهم زمناً واتخذ أم ولد ولدت له صبية وماتت فدفنتها بالقيروان ومن ثم اتخذ موضع دفنها مقبرة لمكان تلك الصبية⁽⁴⁾ .

وفي عصر التابعين نجد من فقهاء المدينة البارزين الذين نزلوا القيروان

(1) طبقات علماء أفريقية وتونس : 68 .

(2) القيروان ودورها في الحضارة الإسلامية للدكتور محمد زيتون : 189 ، 190 .

(3) الرياض 137:1 ومدرسة الحديث 88:1 .

(4) الرياض 91:1 ومدرسة الحديث 52:1 .

سليمان بن يسار أحد الفقهاء السبعة بالمدينة الذي قدم إلى القيروان غازياً، وأقام بها وكانت له بها آثار مشهورة ومقامات مذكورة ثم رجع إلى المدينة وأقام بها حتى وفاته سنة 94 هـ⁽¹⁾.

وعكرمة مولى عبدالله بن عباس الذي ذكره الامام مالك في موطنه دخل افريقية وأقام بالقيروان واشتهر بالجلوس في مؤخرة مسجد القيروان غربي المنارة يعلم سكان القيروان العلم⁽²⁾ وبخاصة تفسير القرآن الذي اشتهر به مولاه عبدالله بن عباس وعكرمة وإن كان ينتمي إلى مدرسة مكة إلا أن التداخل بين مدرسة مكة والمدينة قائم، لكن المؤكد أن مدرسة مكة غلب عليها التفسير أكثر من الفقه.

ومن الذين دخلوا القيروان في هذه الفترة عبد الملك بن مروان (ت 86 هـ) وهو من فقهاء المدينة وعبيدالله بن عمر بن الخطاب⁽³⁾.

وعلى كل حال فإن عدد الذين دخلوا المدينة في عصر التابعين كان كبيراً⁽⁴⁾ ويغلب على دخولهم الغزو في أكثر الأحوال، إلا ما نهت المصادر على أن دخوله لم يكن بغرض الغزو كعكرمة مولى عبدالله بن عباس،⁽⁵⁾ كما أنهم لم يكونوا جميعاً يلزمون مذهب أهل المدينة.

2 - تبادل الرسل بين المدينة والقيروان :

بعد أن سكنت عركة الغزو وازدادت حاجة أهل القيروان إلى الفقه برز نوع جديد من الصلات بين المدينة والقيروان يمكن أن نطلق عليه تبادل الرسل، وفي ذلك نهد أن أهل القيروان لما كثرت عليهم المسائل المشككة جمعوها وأرسلوا بها خالد ابن أبي عمران (ت 125 هـ) ليسأل عنها التابعين

(1) طبقات علماء أفريقية ص 83. والقيروان ودورها في الحضارة الإسلامية: 189.

(2) طبقات علماء أفريقية وتونس ص 83.

(3) طبقات علماء أفريقية ص 80.

(4) راجع فيمن دخل القيروان من التابعين طبقات علماء أفريقية 79 - 84.

(5) المرجع السابق ص 83.

في المدينة فأتى سالم بن عبدالله بن عمر (ت 106 هـ) والقاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق (ت 106 هـ) وهما من فقهاء المدينة أحدهما وهو القاسم أجمعت كتب التاريخ على عده بين الفقهاء السبعة الذين اشتهرت بهم المدينة والآخر وهو سالم اختلف في عده بين الفقهاء السبعة لكنه من الفقهاء المعروفين بالمدينة بلا شك⁽¹⁾.

ولما أتى خالد هذين الفقيهين أبيا أن يجيباه عنها فقال لهما إننا بموضع جفاء في هذا المغرب وأنهم حملوني هذه المسائل، وقالوا لي أنك تقدم المدينة، وبها أبناء أصحاب النبي ﷺ فسلمهم لنا وإنكما إن لم تفعلنا كانت حجة لهم فأجاباه فدون عنهما وعن سليمان بن يسار كتاباً كبيراً رواه أهل القيروان وعملوا بما فيه⁽²⁾.

وإرسال أهل القيروان رسولهم الخاص بمسائلهم إلى المدينة يدل على حرصهم على فقهاء خاصة، كما أن إصرار خالد على القاسم وسالم أن يجيباه وتدوينه لكتاب كبير في هذا الصدد تناقله أهل القيروان بينهم بالرواية وعملوا بما فيه، كل ذلك يؤكد النزعة المدنية عند أهل القيروان.

وبعد ذلك كانت بعثة التابعين العشرة المشهورة التي أرسلها الخليفة عمر بن عبد العزيز للقيام بمهمة نشر العلم والفقه بالقيروان وهم: اسماعيل ابن عبيدالله بن أبي المهاجر المخزومي (ت 132 هـ) وإسماعيل بن عبيدالله الانصاري (تاجر الله) (ت 107 هـ) وعبدالله بن يزيد المعافري (ت 100 هـ) وأبو مسعود سعيد بن سعد التجيبي الكندي (لم يذكر تاريخ وفاته)، وعبد الرحمن بن رافع التنوخي (ت 113 هـ) وحبان بن أبي جبلة القرشي (ت 125 هـ) وطلق ابن حابان الفارسي (لم يذكر تاريخ وفاته) وبكر ابن سودة الجذامي (ت 128 هـ).

وأبو سعيد جعفر بن همام بن عمر الرعيني (ت 115 هـ) وقد أقام

(1) راجع ترتيب المدارك للقاضي عياض 20:2 ومالك للشيخ محمد أبو زهرة: 153.

(2) راجع مدرسة الحديث 88:1.

هؤلاء الفقهاء بالقيروان وأنشأ كل واحد منهم مسجداً وكتاباً لتعليم الصغار القرآن ومبادئ القراءة بالإضافة إلى الدور التي سكنوها ومكثوا بالقيروان إلى أن أدركتهم الوفاة⁽¹⁾. وكان دورهم في إشاعة الفقه عظيماً لأن أبا العرب يذكر أن الخمرة كانت عند أهل إفريقية حلالاً حتى بعث عمر بن عبد العزيز هؤلاء الفقهاء فعرفوا أنها حُرمت⁽²⁾.

هذا وليس هناك ما يؤكد أن جميع هؤلاء الفقهاء من الآخذين عن أهل المدينة وحدهم فبعضهم أخذ عن الصحابة الذين كانوا بغيرها من الأمصار وبعضهم أخذ عن أهل المدينة كما تعكس ذلك تراجمهم⁽³⁾.

ولعلّ التلقي المختلط لأهل القيروان في تلك الفترة المبكرة قد مهد مع عوامل أخرى من التلقي في زمن لاحق لظهور بعض المذاهب الفقهية غير مذهب الإمام مالك كمذهب الأوزاعي (ت 157 هـ) ومذهب سفيان الثوري (ت 161 هـ) ومذهب الإمام أبي حنيفة (ت 150) كما أن السعة في الرواية التي تمكن منها القيروانيون لقاء ذلك التنوع جعلت عند القيروانيين - في تلك الفترة - من الأحاديث ما ليس عند غيرهم فقصدهم الناس من المشرق نفسه لأخذ بعض الأحاديث عنهم فعبد الرحمن بن أنعم المعافري (ت 161 هـ) روي عنه - وقد كان حريصاً على الرواية عن كل من دخل القيروان كما يذكر ذلك أبو العرب - سفيان الثوري وابن لهيعة وعبدالله بن وهب وعبدالله بن المبارك⁽⁴⁾، بل وتذكر المصادر أنه كان أثناء وجوده بمكة يأتيه الطلاب للأخذ والسماع عنه وأن سفيان الثوري زاره في حلقة وجرت بينهما مواعظ ومذاكرات⁽⁵⁾.

(1) القيروان ودورها في الحضارة الإسلامية: 190.

(2) طبقات علماء إفريقية 87.

(3) راجع طبقات علماء إفريقية ص 86 وما بعدها.

(4) راجع طبقات علماء إفريقية، ص 92.

(5) القيروان ودورها في الحضارة الإسلامية: 197.

ومن الذين دخلوا القيروان في هذه الفترة من أهل المدينة يحيى بن سعيد الانصاري (ت 141 أو 144)⁽¹⁾ الذي روى عنه الامام مالك بن أنس وولي قضاء المدينة وكان من فقهاؤها المعروفين في المرحلة التي تلت الفقهاء السبعة.

هذا ويبدو أن الصلات وبخاصة الرحلات قد قلت في عموم أمرها في هذه الفترة لأن عدد التابعين بالقيروان كان كبيراً فأغنوا الأفارقة عن الارتحال، وقد امتدت هذه الفترة إلى حدود العقد الثالث من المائة الثانية ثم وجدت بعض الرحلات الأحادية إلى سنة 144 هـ⁽²⁾.

6 - نشاط الرحلات بين القيروان والمدينة :

ثم أعقبت تلك الفترة فترة نشطت فيها الصلات بين القيروان والمدينة بشكل ملحوظ، وقد كان السبب في ذلك النشاط فوق رغبة أهل القيروان الدائمة في طلب العلم والبحث عن سبل الاستزادة منه - يرجع إلى ظهور الامام مالك الذي تبلور عنده علم أهل المدينة وأثرهم وأجتهادهم واشتهر بالفتوى فقصده الناس من كل صوب وحذب، وقد كان نصيب القيروانيين من ذلك كبيراً ومن الذين اشتهرت رحلتهم إلى المدينة في هذه الفترة الفقيه القيرواني المعروف عبدالله بن فروخ (ت 176 هـ)

- رحلة عبدالله بن فروخ :

يبدو أن ابن فروخ زار المدينة مرتين في الأولى منهما لم تكن زيارته قاصرة على المدينة وحدها فقد زار الكوفة أيضاً، ولقي محدثين وفقهاء سوى أهل المدينة كالثوري وأبي حنيفة، كما سمع من المدنيين من عبد الملك بن جريج والأعمش والامام مالك، ذكر المالكي عنه أنه رحل قديماً فلقي الشيوخ والفقهاء قال وهناك سمع من أبي حنيفة مسائل كثيرة غير مدونة إلى

(1) المرجع السابق ص 93.

(2) مدرسة الحديث 1:201.

أن يقول وفيها لقي مالكا وتفقه عنده وسمع منه وأما خبره المتقدم مع مالك فإنما كان في سفرته الثانية بعد خروجه من القيروان⁽¹⁾.

والمسائل التي أخذها ابن فروخ عن الامام أبي حنيفة يقدرها المالكي بنحو عشرة آلاف مسألة، وقد كان حريصاً بالاضافة إليها أن يأخذ الحديث عنه إذ حكى عن نفسه أنه بينما كان في دار أبي حنيفة سقطت آجرة من أعلى الدار على رأسه فأدغمي فسأله الإمام أبو حنيفة أخذ «الأرش» أو ثلثمائة حديث فطلب منه الحديث⁽²⁾. كما أثر أنه ناظر زفر بن الهذيل في مجلس الامام أبي حنيفة وظهر عليه رغم ازدراء زفر له لمغربيته⁽³⁾.

وفي كل الأحوال فإن ابن فروخ كان ذا ميل للنظر والاستدلال فقارب هذا بينه وبين أهل العراق إلا أنه مع ذلك لم يكن يتبع مذهبهم وإنما كان اعتماده في الحديث والفقه على مذهب الامام مالك⁽⁴⁾. على أنه لا بد من الاشارة هنا إلى الدور الذي لعبه ابن فروخ في ظهور فقه العراقيين بالقيروان رغم مالكيته⁽⁵⁾.

وقد كانت لابن فروخ صلات مستمرة بالمدينة فوق رحلته إليها فقد أثر أنه كانت بينه وبين الامام مالك مراسلات قال ابن الجزار في كتاب طبقات القضاة كان ابن فروخ فقيهاً ورعاً رحل في طلب العلم وكان ي كاتب مالكا في المسائل ويجاوبه⁽⁶⁾. وقال ابن حارث كان ابن فروخ من شيوخ افريقية وممن رحل إلى مالك فسمع منه وكان ي كاتبه ويجاوبه مالك⁽⁷⁾.

ومن نماذج ما كتب فيه ابن فروخ للامام مالك اختلافه مع ابن غانم في

(1) تراجم أغلبية: 47.

(2) المرجع السابق والصفحة.

(3) المرجع السابق: 44.

(4) المرجع السابق: 40.

(5) القيروان ودورها في الحضارة الإسلامية: 201.

(6) تراجم أغلبية: 40.

(7) المرجع السابق: 41.

تولية الأمير غير العدل للقضاة حيث أجاز ذلك ابن غانم وأباه ابن فروخ، فلما قرأ الإمام مالك الكتاب قال للرسول ولي ابن غانم القضاء قال نعم قال مالك إنا لله وإنا إليه راجعون فهلاً هرب فهلاً فر حتى تقطع يده أصاب الفارسي وأخطأ الذي يزعم أنه عربي⁽¹⁾.

وكتابه له بشأن البدع، قال أبو العرب كان ابن فروخ كتب إلى مالك يخبره إن بلدنا كثير البدع وأنه ألف لهم كلاماً في الرد عليهم. فكتب إليه مالك: يقول له إن ظننت ذلك بنفسك خفت أن تزل وتهلك لا يرد عليهم إلا من كان ضابطاً عارفاً بما يقول لهم لا يقدرون أن يعرجوا عليه فهذا لا بأس به وأما غير ذلك فإني أخاف أن يكلمهم فيخطيء فيمضوا على خطئه أو يظفروا منه بشيء فيظفروا ويزدادوا تمادياً في ذلك⁽²⁾. بل وأكثر من ذلك كان ابن فروخ إذا أشكلت عليه قضية أرجأ أمر الخصمين حتى يأتيه جواب مالك⁽³⁾.

وفيما وراء ما سبق كان عبدالله بن فروخ مكرماً عند الامام مالك، معترفاً بفضلته وعلمه. حكى الطحاوي أن ابن فروخ قدم المدينة فلبس ثيابه وأتى قبر النبي ﷺ فسلم عليه ثم أتى مالكا. فلما رآه مالك تلقاه بالسلام، وقام إليه وكان لا يكاد يفعل ذلك بكثير من الناس، ثم أفسح له في المجلس بجانبه كما وجه إليه المسائل التي كانت ترد عليه للإجابة فيها وأخيراً التفت إلى أصحابه وقال هذا فقيه المغرب⁽⁴⁾.

وفي موقف آخر أتى سائل من آل المغرب بمسائل في الجنايات فطلب مالك من ابن فروخ أن يجيب عليها «أجيبهم يا أبا محمد فإنهم أهل بلدك فقال له ابن فروخ بحضرتك قال نعم: عزمت عليك⁽⁵⁾ كما كان الامام مالك يسأل

(1) المرجع السابق: 46.

(2) المرجع السابق: 48.

(3) القيروان ودورها في الحضارة الإسلامية: 422.

(4) تراجم أغلبية: 42.

(5) المرجع السابق: 43.

عن رأي ابن فروخ في المسائل التي تردده من المغرب لعلمه أنه من أصحاب الفتوى بالقيروان⁽¹⁾.

- رحلة علي بن زياد:

من الذين رحلوا إلى المدينة في هذه الفترة، علي بن زياد (ت 183 هـ) ورغم أن علي بن زياد من أهل تونس إلا أنه كان يأتي القيروان أحياناً قال بعضهم: «رأيت علي بن زياد واقفاً إلى سارية بجامع القيروان فأراد أن يكبر فارتعد خوفاً من الله ثم تحامل فكبر وتغير لونه»⁽²⁾.

ورحلة علي بن زياد كانت بعد فراغ الامام مالك من وضع كتابه الموطأ فسمعه منه ثم عاد به إلى إفريقية فأقبل عليه الناس يسمعون منه⁽³⁾.

قال أبو سعيد بن يونس: «هو أول من أدخل الموطأ وجامع سفيان المغرب وفسر لهم قول مالك ولم يكونوا يعرفونه»⁽⁴⁾.

هذا ولم يقتصر علي بن زياد في رحلته على المدينة وحدها وإنما ذهب أيضاً إلى العراق⁽⁵⁾.

ومن الذين تتلمذوا له البهلول بن راشد، وأسد بن الفرات، وسحنون وقد قال سحنون هذا عنه: «ما أنجبت إفريقية مثل علي بن زياد»⁽⁶⁾.

- رحلة البهلول بن راشد:

من الذين رحلوا إلى المدينة من فقهاء القيروان البهلول بن راشد (ت 183 أو 184) الذي تتلمذ في البداية بإفريقية على عبد الرحمن بن زياد

(1) المرجع السابق والصفحة.

(2) المرجع السابق: 24.

(3) مدرسة الحديث 1: 205.

(4) تراجم أغلبية: 22.

(5) المرجع السابق والصفحة.

(6) المرجع السابق 238.

وموسى بن علي بن رباح وعلي بن زياد ثم رحل إلى المشرق فسمع من مالك والثوري والليث بن سعد والحارث بن نبهان ويونس بن يزيد وحنظلة ابن أبي سفيان والقرشي الجمحي بمكة⁽¹⁾.

اشتهر البهلول بالعبادة والصلاح وفيه قال مالك حينما رآه: «هذا عابد بلده»⁽²⁾ كما كان من الذين يغلب عليهم الاتباع، وفي أتباعه تروى قصة وهي خروجه على أصحابه يوماً وقد غطى خنصره بكفه لأنه كان قد عقد فيه خيطاً وخشية أن يكون مبتدعاً في هذا الأمر أخفى ما فعل إلى أن أرسل إلى ابن فروخ فأفاده بأن ابن عبدالله بن عمر كان يفعل ذلك فلما بلغه ذلك قال: «الحمد لله الذي لم يجعلني ابتدع في الاسلام»⁽³⁾.

رحلة عبدالله بن غانم:

هو عبدالله بن غانم بن شرحبيل (ت 190 هـ) رحل إلى الحجاز، وسمع من مالك، وسفيان الثوري، وأبي يوسف ولكن اعتماده على مالك⁽⁴⁾.

كان الامام مالك يجله، وإذا جاء أقعده إلى جنبه، وسأله عن أخبار المغرب وتبسط معه لدرجة أن أصحاب الامام مالك كانوا يغارون من ذلك ويقولون: شغله المغربي عنا⁽⁵⁾.

ولما تولى القضاء وبلغ الخبر مالكا سر لذلك بل يقال إن الإمام مالكا عرض عليه أن يزوجه ابنته على أن يقيم معه فامتنع من ذلك، وقال له إن أخرجتها إلى القيروان تزوجتها⁽⁶⁾.

(1) تراجم أغلبية: 27 وطبقات علماء أفريقية: 126 والقيروان ودورها في الحضارة الإسلامية: 204.

(2) تراجم أغلبية: 10.

(3) طبقات علماء أفريقية: 128.

(4) تراجم أغلبية: 10.

(5) المرجع السابق والصفحة.

(6) المرجع السابق والصفحة.

وكما ارتحل ابن غانم إلى الحجاز كانت له أيضاً مراسلات ومكاتبات مع الامام مالك فقد كان يكتب إلى عثمان بن عيسى بن كنانة فيسأل له مالكا عن أحكامه⁽¹⁾. ويرسل حاتم بن عثمان المعافري بها أحياناً⁽²⁾. وفي ذلك يقول حاتم: «وكننت إذا أتيت بكتاب ابن غانم إلى مالك قال لي: ادفعه إلى ابن كنانة فيكتب ابن كنانة الجواب ثم آتي به مالكا فاعرضه فإن أنكر شيئاً أصلحه»⁽³⁾.

- رحلة أسد بن الفرات :

رحل أسد بن الفرات إلى المشرق سنة 172 هـ وقصد مالكا في المدينة، وكان شديد الرغبة في العلم وتحصيله تزدهم المسائل عليه وتتسلسل القضايا عنده، ولما قدم على الإمام مالك وأنس منه الرغبة في العلم أذن له أن يدخل مع المصريين إذ كانت عادة الإمام مالك أن يدخل أولاً أهل المدينة ثم المصريين ثم عامة الناس⁽⁴⁾. لكن مع ذلك لم يلبث أسد أن أزعج الامام مالك بالصور التي يفرضها حتى قال له: «هذه سلسة بنت سلسة إن أردت هذا فعليك بالعراق»⁽⁵⁾.

وعلى كل حال فإن أسداً قد تبرأ من إكثاره على الامام مالك وملاحقته بالصور المفترضة وأسند ذلك إلى ابن القاسم وغيره: «وكان ابن القاسم وغيره يجعلوني أسأل مالكا فإذا أجابني قالوا لي قل له: «فإن كان كذا وكذا فضاق علي يوما...»⁽⁶⁾.

وقد اكتسب أسد من إقامته مع الامام مالك معرفة جيدة بالمذهب

(1) طبقات علماء أفريقية: 116.

(2) تراجم أغلبية: 77.

(3) المرجع السابق والصفحة.

(4) المرجع السابق: 53.

(5) المرجع السابق: 54.

(6) المرجع السابق: 54.

المالكي ومسائله، وهي معرفة جعلت العراقيين يرحبون به حين قدم إليهم: «فلما أتيت الكوفة أتيت أبا يوسف فوجدته جالساً ومعه شاب وهو يملي عليه مسألة فلما فرغ منها قال ليت شعري ما يقول فيها مالك؟ قلت: كذا وكذا فنظر إليّ. فلما كان في اليوم الثاني كان مثل ذلك، وفي الثالث مثله، فلما افترق الناس دعاني وقال لي: من أين لك أنت؟ ومن أين أقبلت قال: فأخبرته قال وما تطلب. قلت: ما ينفعني الله به فعطف على الشاب الجالس فقال: ضمه إليك لعل الله ينفعك به في الدنيا والآخرة فخرجت معه إلى داره فإذا هو محمد بن الحسن فلزمته حتى كنت من المناظرين من أصحابه⁽¹⁾.

وأثناء زمالته لمحمد بن الحسن كان يلاحقه بالمسائل، وكان محمد بن الحسن إذا دخل في الصلاة يجهر فيها بالقراءة ليعلم أسد أنه يصلي فيكيف عنه، لكن أسداً كان لا يكف بل يقول لمحمد بن الحسن تشتغل عني بالصلاة وقد قطعت البلاد إليك فيقطع محمد بن الحسن الصلاة ويجيبه⁽²⁾.

وعندما تشبع⁽³⁾ أسد من طريقة العراقيين ووقف على مسائلهم وأسلوبهم كان الامام مالكا قد توفي فلم يرجع إلى المدينة وإنما ذهب إلى تلاميذ الامام مالك بمصر والتقى - أولاً - بابن وهب وقال له: هذه كتب أبي حنيفة وسأله أن يجيب عنها على مذهب مالك فتورع ابن وهب وأبى فذهب إلى ابن القاسم فأجابه مسنداً ما يحفظه إلى الامام مالك، وما يشك فيه قال فيه: أخال وأحسب وأظن بالاضافة إلى اجتهاده في بعض المسائل حسب أصول مالك⁽⁴⁾ ومن ذلك كله تكونت الأسدية التي هذبها - فيما بعد - الامام سحنون بعد عرضها على ابن القاسم - مرة أخرى - فكانت مدونة الفقه المالكي المشهورة...

وفي نهاية المطاف فإن التكوين المزدوج (الحجازي والعراقي) الذي

(1) المرجع السابق: 54.

(2) المرجع السابق: 56.

(3) المرجع السابق: 54.

(4) المرجع السابق: 58.

تمتع به أسد أهله ليتلمذ عليه المدنيون كسحنون بن سعيد وسلمان بن عمران وغيرهم وأن يسمع منه الكوفيون كتب أبي حنيفة ويبدو أنه كان يؤدي تلك المهمة بلا تعصب؛ لأنه كان إذا سرد أقوال العراقيين يقول له مشايخ المدنيين: أوقد القنديل الثاني يا أبا عبدالله فيسرد أقوال المدنيين⁽¹⁾.

رحلة عبدالله بن أبي حسان اليحصبي.

ومن الذين رحلوا إلى المدينة للقاء الامام ماك وأدركوه في أخريات أيامه عبدالله بن أبي حسان اليحصبي (ت 227 هـ) قال أبو العرب ورحل إلى مالك وكان عنده مكرماً وسمع من ابن أبي ذؤيب وابن عيينة وابن أنعم⁽²⁾.

ويصف أبو حسان رحلته إلى الامام مالك وأنه أتاه فوجد باب داره مغلقاً فقرع الباب فأتته جارية مالك فأدخلته الدار إلى أن كان وقت خروج الامام فخرج بين تلك الجارية وفتى يخط رجلاه على الأرض كبراً ثم يشير إلى إكرامه له وتوسيعه له في المجلس وسؤاله عن ابن غانم بعد أن دفع له كتاباً كان معه أرسله ابن غانم⁽³⁾.

وأبو حسان هذا كان فقيهاً بارعاً قال سحنون: «كان أول طلبي إذا انغلقت علي مسألة في الفقه أتني أبا حسان فكأن ما بين يديه مفتاح لما انغلق من مسائل الفقه⁽⁴⁾». وقال أبو علي البصري كان عبدالله بن أبي حسان غاية في الفقه بمذهب مالك⁽⁵⁾.

وجاء رجل إلى ابن وهب فأخبره بموت ابن غانم فاسترجع ابن وهب فقال له من ولي بعده؟ قال أبو محرز قال ما أعرفه فأين ابن أبي حسان؟

(1) تراجم أغلبية: 71.

(2) المرجع السابق: 73.

(3) المرجع السابق والصفحة.

(4) المرجع السابق: 72.

(5) المرجع السابق: 73.

فوالله ما رأيت مالكا أميل إلى أحد منه إليه»⁽¹⁾.

ومن القيروانيين الذين رحلوا إلى الامام مالك في هذه الفترة وسمعوا منه صقلاب بن زياد الهمداني، وأبو خارجة عنبة بن خارجة الغافقي، وعبدالله بن أبي غسان، ويزيد بن محمد الجمعي، وعمر بن الحكم اللخمي، وزكريا بن محمد بن الحكم⁽²⁾.

وبالجملة فإن الذين رحلوا إلى المدينة في حياة الامام مالك كانوا كثيرين مما أدى إلى انتشار مذهب الامام مالك بالقيروان بطريقة بيّنة واضحة. قال محمد بن الحارث: كانت افريقية قبل رحلة سحنون قد غمرها مذهب مالك بن أنس لأنه رحل منها أكثر من ثلاثين رجلاً كلهم لقي مالكا وسمع منه وإن كان الفقه والفتيا في قليل منهم كما كان ذلك في علماء البلاد⁽³⁾.

4 - الرحلة إلى المدينة بعد موت الامام مالك :

وقد تواصلت الرحلة إلى المدينة بعد موت الامام مالك فسحنون بن سعيد التنوخي (ت 240 هـ) فقيه القيروان المشهور وراوي المدونة عن ابن القاسم يبدي أسفه على عدم لقيه لمالك ويقول في ذلك: «لحي الله الفقر فلولا لأدركت مالكا»⁽⁴⁾ وكان وقتها عند ابن القاسم بمصر مع دوام حرصه في الرجوع إلى المدينة: «انفلتت عليّ مسألة حتى أردت الرجوع فيها إلى المدينة حتى اتضحت لي»⁽⁵⁾ لكنه ذهب إلى المدينة - بعد موت مالك - وسمع من عبدالله بن نافع الصائغ، ومعن بن عيسى، وعبد الملك بن الماجشون وكلهم من أصحاب مالك⁽⁶⁾.

(1) المرجع السابق والصفحة.

(2) القيروان ودورها في الحضارة الإسلامية: 421.

(3) تراجم أغلبية: 93.

(4) تراجم أغلبية: 87، 88.

(5) المرجع السابق: 89.

(6) ترجمة سحنون: مناقبه وسيرته وعلمه بحث لدكتور التهامي في محاضرات ملتقى

الإمام سحنون ص 8.

كما كانت بينه وبين فقهاء المدينة مراسلات فقد كتب إلى عبدالله بن الماجشون (ت 212 هـ) يذكر ما حدث عندهم من الكلام في التشبيه والقرآن ويسأله الجواب عليه، وكتب إليه عبد الملك: من عبدالله بن الماجشون إلى سحنون بن سعيد سلام عليك فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو - أما بعد فقد وفقنا الله وإياكم لطاعته سألتني عن مسائل ليست من شأن أهل العلم والعمل بها جهل، فيكفيك من مضى من صدر هذه الأمة لأنهم اتبعوا بإحسان ولم يخوضوا في شيء منها، وقد خلص الدين إلى العذراء في خدرها فما قيل لها كيف ولا من أين؟ فاتبع لما اتبعوا، اعلم أن العلم الأعظم الذي لا يشاء الرجل أن يتكلم من شيء في هذا فيكب فيهوى في نار جهنم⁽¹⁾.

وعلى كل حال فإن فقه المدينة انعكس في القيروان بشكل بَيّن وواضح في هذا الامام الجليل والقاضي الورع. قال عيسى بن مسكين: «سحنون راهب هذه الأمة ولم يكن بين مالك وسحنون ألفة من سحنون»⁽²⁾ ووصف بأنه إمام الناس في علم مالك⁽³⁾. وقد ترسم حياة أهل المدينة حتى في عيشه قال سليمان بن سالم: «أخذ سحنون بمذهب أهل المدينة في كل شيء حتى في عيشه»⁽⁴⁾.

وقد صاحب سحنون في رحلته إلى مصر والمدينة محمد بن رشيد (ت 221 هـ) قال ابن الحارث وكان فقيهاً وصاحباً لسحنون عند ابن القاسم⁽⁵⁾.

وممن رحلوا إلى المدينة حمّاد بن يحيى أبو يحيى السجلماسي (تاريخ وفاته غير معلوم) وهو أول من قدم بفقه ابن الماجشون إلى

(1) ترتيب المدارك 363:2، والقيروان ودورها في الحضارة الإسلامية: ص 423.

(2) تراجم أغلبية: 94.

(3) المرجع السابق: 95.

(4) المرجع السابق: 96.

(5) المرجع السابق: 145.

القيروان⁽¹⁾.

ومحمد بن سحنون (ت 256 هـ) رحل إلى المدينة فلقى أبا مصعب الزهري وابن كاسب وسمع من سلمة بن شبيب⁽²⁾.

قال أبو العرب: وكان إماماً في الفقه ثقة وكان عالماً بالذبح عن مذاهب أهل المدينة عالماً بالآثار صحيح الكتاب لم يكن في عصره أحذق بفنون العلم منه فيما علمت⁽³⁾. وكان القيروانيون يفخرون به على أهل العراق⁽⁴⁾.

5 - الرحلة من المدينة إلى القيروان:

هذا وينبغي أن نقف هنا لنشير إلى أن المدينة أيضاً كانت تبادل القيروان الرحلة إذ رحل كثير من المدنيين إلى القيروان، ومن الذين حمل التاريخ أسماءهم في هذا الصدد عبد العزيز بن يحيى المدني الذي قدم القيروان سنة 225 هـ يمسك ببيعته ومكث بالقيروان سنة، وسمع منه أثناء إقامته بالقيروان محمد بن سحنون وبشر كثير⁽⁵⁾. وعلي بن يونس الليثي، وعبدالله بن يزيد المقرئ، وأبو يحيى زكريا بن يحيى الوقار الذي توفي بمدينة القيروان وكان قدومه إليها سنة 225 هـ مع عبد العزيز بن يحيى المدني⁽⁶⁾.

6 - تتابع الرحلة إلى المدينة حتى القرن الخامس الهجري:

هذا وقد توالى الرحلة إلى المدينة بعد محمد بن سحنون فنجد من فقهاء القيروان الذين ارتحلوا إليها أحمد بن معتب بن أبي الأزهر (ت 227 هـ) ويحيى بن عمران (ت 289 هـ) وعيسى بن مسكين (ت 295 هـ) إلا أنها قد ضعفت.

(1) المرجع السابق: 146.

(2) المرجع السابق: 170.

(3) المرجع السابق والصفحة.

(4) المرجع السابق: 171.

(5) طبقات علماء أفريقية وتونس 158.

(6) المرجع السابق: 182.

بعد ذلك في فترة العبيديين الذين حالوا بين علماء السنة ونشر مذهبهم، ومع ذلك وجد بعض الذين رحلوا إلى المدينة في طلب الحديث كمسرة بن مسلم (ت 300 هـ) وربيع القطان (ت 333 هـ) وعبدالله بن أبي هاشم (ت 346 هـ) وعبدالله بن أبي زيد القيرواني (ت 386 هـ) وأبو الحسن علي بن محمد القابسي (ت 403 هـ)⁽¹⁾.

ويعد زوال دولة العبيديين عادت الرحلة إلى نشاطها، ومن الذين رحلوا في هذه الفترة أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد الكناني المعروف بابن الكاتب (408 هـ) فقيه معروف بالعلم واقامة الحجة، أخذ عن ابن شبلون والقابسي، رحل للشرق واجتمع بأئمة أجلة⁽²⁾.

وأبو بكر عتيق بن خلف التجيبي (ت 422 هـ) وكانت له عناية بالفقه ومناقب الصالحين.

يذكر صاحب الشجرة أنه رحل إلى المشرق وأخذ عن أعلامه⁽³⁾. وأبو عمران موسى بن عيسى الغنجمي الفاسي القيرواني (ت 340 هـ) فقيه له تعليق على المدونة، رحل للمشرق وحج، ودخل العراق⁽⁴⁾.

وأبو بكر محمد مكي بن أبي طالب القيسي القيرواني (ت 430 هـ) له الهداية في الفقه وإن كان علم القرآن غالباً عليه، أخذ الفقه عن ابن أبي زيد والقابسي، وأخذ عن أعلام المشرق⁽⁵⁾.

وأبو الطيب عبد المنعم بن إبراهيم الكندي المعروف بابن بنت خلدون (ت 435 هـ) عليه تفقه اللخمي، وله - كما يذكر صاحب الشجرة - رحلة

(1) مدرسة الحديث 1: 207.

(2) شجرة النور الزكية في طبقات المالكية لمحمد مخلوف: 106.

(3) المرجع السابق والصفحة.

(4) المرجع السابق والصفحة.

(5) المرجع السابق: 108.

دخل فيها مصر وغيرها⁽¹⁾.

وأبو القاسم عبد الرحمن بن محرز القيرواني (ت 450 هـ) تفقه بأبي عمران الفاسي، والقابسي - له تصانيف فقهية منها تعليق على المدونة سماه «التبصرة»، رحل للمشرق، وسمع من مشائخ جلة وأخذ عنهم⁽²⁾.

تعقيب واستخلاص :

1 - رأينا من خلال العرض التاريخي السابق كيف كانت الصلات بين المدينة المنورة والقيروان موصولة منذ تأسيس القيروان في سنة 50 هـ إلى القرن الخامس الهجري.

2 - هذا وقد تكون تلك الصلات قد أخذت - في مراحلها الأولى - ضرباً من الاتساع والعمومية ولم يقتصر أخذ القيروانيين فيها عن أهل المدينة وحدهم وإنما ضم إليهم آخرين؛ وسبب ذلك راجع إلى طبيعة تلك المرحلة التي كانت مرحلة تأسيس وتمهيد للفقه، وكان غالب هم الناس فيها البحث عن الحديث الصحيح الذي يبنون عليه الفقه لكن - مع ذلك - كان خط العلاقة بين المدينة والقيروان بارزاً ومميزاً بطريقة مهدت برحابة إلى الرحلة المكثفة، والصلوات الأخرى المنداحة التي عقدها القيروانيون مع الامام مالك عند ظهوره بالمدينة المنورة، ومع تلاميذه من بعده...

3 - ومن الأسباب التي مهدت لتلك الصلات - فوق تأصل النزعة المدنية في نفوس القيروانيين - رحلة الحج التي كان أهل القيروان حريصين عليها أداء لفرض الله الواجب عليهم، على أنه ينبغي أن يلاحظ هنا أن حرص القيروانيين على رحلة الحج لم يغمط الرحلة الخاصة - التي يقصد القيروانيون فيها المدينة لذات العلم - حقها فكثيراً ما رحل القيروانيون أكثر من رحلة كما أنهم وهم في طريقهم للحج يحرصون على الفقه المدني خارج المدينة فيجمعون منه ما يستطيعون وهم في طريقهم إليه، وقد تجلى ذلك في وصية

(1) المرجع السابق: 107.

(2) المرجع السابق: 110.

سحنون لابنه محمد: «إذا أردت الحج تقدم طرابلس وكان فيها رجال مدنيون، وفيها الرواة وفيها فقه مالك، ومصر وفيها الرواة، والمدينة وفيها عاش مالك، ومكة فاجتهد جهدك فإن قدمت عليّ بلفظة خرجت من دماغ مالك ليس عند شيخك أصلها فاعلم أن شيخك كان مقصراً»⁽¹⁾.

4- فضلاً عما سبق كشف العرض السابق أن تلك الصلوات كانت متعددة من حيث طبيعتها وأنواعها فهي رحلات من الجانبين القيرواني والمدني، ورسل (سفراء) يحملون اسئلة محددة للاجابة عليها من فقهاء المدينة، ورسائل متبادلة ونصائح، وخروج للتجارة، وللحج، واجازات علمية فهذا عون بن يوسف الخزاعي القيرواني (ت 239 هـ) الذي قدم المدينة سنة 180 هـ فأدرك بها رجالاً كثيرين وأخذ عنهم لما سأل عن صحة ما رواه عن ابن وهب يستشهد على ذلك بأنه قرأه على ابن وهب وقرأه ابن وهب عليه، وأنه قد حضر ابن وهب وقد أتاه رجل بكتب في تليس (القمطر) فقال يا أبا محمد هذه كتبك فقال له: اذهب فحدث بها، فقد أجزتها لك، فإني حضرت مالكاً وفعل مثل ذلك⁽²⁾.

5- وفيما وراء ذلك فقد تركت تلك الصلوات بتاريخها وحركتها ووصفها السابق من حيث تعدد طرقها - أثرها البين على الفقه القيرواني، والذي يمكن إجمال مظاهره في الآتي:

أ- مثلت تلك الصلوات أساساً ارتكز عليه القيروانيون في التزامهم لمذهب الامام مالك من بين سائر المذاهب الفقهية التي عرفوها وتقدم ذكرها: مثل مذهب الأوزاعي وسفيان الثوري، ومذهب الإمام أبي حنيفة الذي عرفه القيروانيون من خلال المسائل التي أدخلها عبدالله بن فروخ، وعبدالله بن غانم، وأسد بن الفرات، وإن كان هؤلاء الثلاثة لم يكونوا يعتنقونه لكنهم كانوا على دراية بفقهه، ودرسوه أحياناً في القيروان من باب

(1) تراجم أغلبية: 93.

(2) طبقات علماء أفريقية وتونس 189، وتراجم أغلبية 137.

هذا وإن كان الالتزام الصارم بمذهب الامام مالك قطعاً لمادة الخلاف قد جاء متأخراً على يد المعز بن بريس (ت 449 هـ) إلا أن القيروانيين كانوا في غالب أمرهم يلتزمون من فترة مبكرة وبخاصة في عهد الامام سحنون قال الخشني: «ثم قدم سحنون بذلك المذهب وجمع من ذلك فضل الدين والعقل والورع والعفاف والانقباض، فبارك الله تعالى فيه للمسلمين، فمالت إليه الوجوه وأحبته القلوب وصار زمانه كأنه مبتدأ، وقد محا ما قبله فكان سراج القيروان»⁽²⁾.

ولا شك أن الأصل في ذلك هو الصلات مع المدينة، الممتدة إلى عصر الصحابة والتابعين والتي مرت عبر إرسال القيروانيين للمدينة مسائل للإجابة عنها وتكوينهم من ذلك مجموعة فقهية اعتمدوا عليها زمناً، ثم تأكد ذلك بادخال علي بن زياد (ت 183 هـ) الموطأ للقيروان وتدرسه بها، ثم الأسدية فالمدونة التي رواها سحنون عن ابن القاسم عن الامام مالك.

وهكذا نرى من خلال تصاعد خط الصلات أن التطور في الصلات بين المدينة والقيروان هو الذي أدى إلى التمكين لمذهب الامام مالك بالقيروان، وأن القيروانيين كانوا حريصين على ذلك وطوروا تلك الصلات بأسلوب نقلهم للفقه المدني ونقل الفقه المدني إليهم بتدرج ينسجم مع طبيعة مراحل التطور التي اجتازها الفقه المدني نفسه، ولا يغيب عن الذهن هنا الأثر الذي تركه القيروانيون على المذهب المالكي كله في ظهور مدوناته فلولاً حرصهم وإلحاحهم ورحلتهم وجهدهم لما كانت المدونة والتي تعد الأصل الثاني بعد الموطأ في الفقه المدني على ما تميزت به من التفريع واللغة الفقهية المباشرة.

ولعل فيما ذكره ابن خلدون وهو بصدد التعليل لالتزام الأفارقة لمذهب

(1) راجع مدرسة الحديث 91:1.

(2) المعالم 83:2 نقلاً عن مدرسة الحديث 95:1.

مالك واضح الدلالة على أثر الرحلة فيه حيث يقول: «إن رحلة أهلها كانت غالباً إلى الحجاز فاقترضوا على الأخذ عن علماء المدينة»⁽¹⁾.

ب - بالإضافة إلى ما مثلته تلك الصلات من أساس ارتكز عليه التزام القيروانيين للمذهب المالكي فقد جعلت القيروان نفسها المركز الثاني لذلك المذهب بعد المدينة المنورة بطريقة استغنى معها الأندلسيون والفاسيون من الانتقال للمشرق غالباً - في العهود المتأخرة - واكتفوا بالأخذ عن أهل القيروان - دخل على أبي عثمان بن الحداد (ت 302 هـ) يوماً أندلسي فقال له ابن الحداد: أراك طالب علم - قال نعم، وأنا متوجه إلى المشرق في ذلك فقال له: «ما الذي كتبت من الكتب؟ فأشار الأندلسي إلى كفه، فأخرج كتاباً من بعض المسانيد فقال له سعيد: إقرأ منه شيئاً. فقرأ حديثاً واحداً. فلما أكمله قال له سعيد: ضع الكتاب من يدك. ثم أخذ يفسر ذلك الحديث ويلخص معانيه. ثم قرأ عليه آخر فأملى عليه تفسيره. ثم ثالثاً. فقال له الأندلسي: مالي حاجة إلى التقدم إلى المشرق لأنني أعلم أنني لا أرى مثلك»⁽²⁾.

بل وأكثر من ذلك فقد أنجبت القيروان فقهاء لهم اختيارات وآراء معدودة في المذهب المالكي كالإمام سحنون وابن أبي زيد القيرواني، وابن اللباد، والقابسي⁽³⁾.

ج - أكدت الصلات مع المدينة في نفوس القيروانيين نزعة التمسك بالنصوص والتزام الحديث فكانت طريقتهم في ذلك طريقة المدنيين الأولى، وفي هذا يذكر الاستاذ حسن حسني عبد الوهاب وهو بصدد التعليل لالتزام الأفارقة لمذهب مالك: «إن رواية الأفارقة للحديث أكثر ما كانت بطريق

(1) مقدمة ابن خلدون: 449.

(2) تراجم أغلبية: 353، 354.

(3) الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي لمحمد بن الحسن الحجوي الثعالبي 455:2.

المدينين وسندهم»⁽¹⁾.

ونلاحظ في هذا الصدد انكارهم على أسد حينما جاءهم بالأسدية وقولهم له: «يا أبا عبدالله جئتنا بالرأي وتركت الآثار وما كان عليه السلف»⁽²⁾.

د - كما أكدت الصلات مع المدينة في نفوس القيروانيين نزعة التمسك بالنصوص والوقوف عندها، فقد جعلتهم أيضاً ينفرون من التأويل والجدل، ويرفضون كل دعوة مارقة: «ومن هنا كان تعلق الناس بسنة رسول الله ﷺ فنبذوا كل من يجافيهما، ولذلك لم تستطع المذاهب المبتدعة أن تعمر طويلاً في هذه البلاد فما تكاد تطفو على السطح حتى يلتف حولها الوعي السني فيدحرها ويفل أسلحتها مهما كانت عاتية ومرهقة»⁽³⁾.

والمتتبع لسير فقهاء القيروان يجد هذه النزعة واضحة فيها فالبهلول بن راشد كان ينقبض عند رؤية أهل البدع ويعرض عن السلام عليهم⁽⁴⁾.

وابن فروخ - رغم ميله لفقه أهل العراق - تصفه المصادر بأنه كان مبائناً لأهل البدع⁽⁵⁾.

وأسد بن الفرات كان يضربهم أحياناً⁽⁶⁾. أما سحنون فقد منعهم من الجلوس للتدريس والفتوى في جامع القيروان⁽⁷⁾.

والبعد عن الجدل في مسائل العقيدة والنفرة منها نزعة مدنية قديمة حدث عمران بن عبدالله قال: «قال القاسم لقوم يذكرون الله كفوا عما كف

(1) الإمام المازري: 15 نقلاً عن مدرسة الحديث 1: 177.

(2) أعلام الفكر الإسلامي للفاضل بن عاشور 27، 28 وتراجم أغلبية: 59.

(3) تدريس السنة النبوية في الزيتونة ص 1 نقلاً عن مدرسة الحديث 1: 99.

(4) تراجم أغلبية: 36.

(5) المرجع السابق: 41.

(6) المرجع السابق: 63.

(7) القيروان عبر عصور ازدهار الحضارة الإسلامية في المغرب العربي: 156.

الله عنه⁽¹⁾ وروي عن عكرمة قال: «سمعت القاسم وسالماً يلعبان القدريّة»⁽²⁾.

والامام مالك يقول لسائله عن الاستواء: الاستواء منه معلوم، والكيف عنه غير معقول، والسؤال عن هذا بدعة، والايمان به واجب، وإنني لأظنك ضالاً⁽³⁾.

وفوق ما سلف، فقد أكدت الصلوات مع المدينة في أهل القيروان النزعة العملية والاقلال من الفتوى - كما هو دأب الامام مالك - الذي سُئل عن أربعين مسألة فأجاب في أربع وقال في ست وثلاثين لا أدري، وحتى في إفتائه كان يتحرز ويخشى الخطأ ولذلك كان يكثر من التعقيب بقوله: «إن نظن إلا ظناً وما نحن بمستيقنين»⁽⁴⁾.

ونلاحظ ذلك عند سحنون الذي يقول: «أجراً الناس على الفتيا أقلهم علماً يكون عند الرجل باب واحد من العلم فيظن الحق كله فيه»⁽⁵⁾.

وقيل له تأتيك المسائل المشهورة مفهومة فتبطن في الجواب عليها فقال: سرعة الجواب بالصواب أشد من فتنة المال⁽⁶⁾.

وقال إنني لأحفظ مسائل تبلغ ثمانية أقوال من ثمانية أئمة فكيف أعجل فيها بالجواب دون أن أتخير؟ وكيف ألام على حبس الجواب⁽⁷⁾.

(1) الطبقات الكبرى لابن سعد 5: 139.

(2) المرجع السابق: 5: 140.

(3) ترتيب المدارك ج 1، ص 198. والمناقب للزواوي: 32 وترين الممالك للسيوطي: 14.

(4) راجع بحثاً للكاتب عن «المذهب المالكي بين المذاهب الفقهية» العدد الثالث من مجلة كلية الآداب بجامعة الإمارات العربية المتحدة ص 121.

(5) المرجع السابق: 122.

(6) المرجع السابق: 123.

(7) المرجع السابق: 122.

و- أمدت الصلات مع المدينة القيروانيين بفيض من الحكمة المدنية فغلب على حياتهم الورع والزهد والتجرد والتقشف في العيش، كما عرفوا بقوة الشخصية أمام الحكام والأمراء رغم أن ذلك عرضهم لكثير من المحن والابتلاءات فالبهلول بن راشد امتحن بالضرب على يد العكي أمير القيروان لما قيل له إنه يقع في سلطانك⁽¹⁾.

وابن غانم يأبى القيام لأبراهيم بن الأغلب على ما جرت به عادة الناس من القيام للملوك، ويحتج لموقفه بحديث الرسول ﷺ: «من أحب أن يتمثل الناس له قياماً فليتبوأ مقعده من النار»⁽²⁾.

ويحكي أبو العرب عن سحنون أنه كان لا يهاب سلطاناً في حق يقيمه عليه ولما أكثر من رد الظلامات من رجال ابن الأغلب، وأبى أن يطلب منهم الوكلاء على الخصومة إلا بأنفسهم ووجه إليه ابن الأغلب رسولاً يرجوه بلطف ألا ينظر في أمرهم، ما كان من سحنون إلا أن قال للرسول: ليس هذا الذي بيني وبينه قل له خذلني خذلك الله⁽³⁾. وأخبار سحنون - في هذا الصدد - على كل حال كثيرة يمكن الرجوع إليها في مظانها⁽⁴⁾.

ومن حكمهم التي أرسلوها قولاً وتشبه حكم الامام مالك أقوال سحنون: «من فقه الرجل مطعمه ومشربه ومدخله وصحبته لأهل الخير وليست العبادة أن تطأ رأسك».

- «إذا رأيت الرجل يحب الدنيا فاتهموه على دينكم».

- «قليل من العمل مع الورع كثير».

(1) المرجع السابق: 37.

(2) المرجع السابق: 16.

(3) المرجع السابق: 107.

(4) المرجع السابق: 107 - 119.

- «اليوم العمل وغداً الحساب وبعد غد الجزاء»⁽¹⁾.

ز - من مظاهر آثار الصلات مع المدينة المنورة الربط بين الفقه المدني والعراقي، وقد تجلّى ذلك الربط في صورتين:

أولاهما: مد العراقيين بالفقه المدني؛ ذلك أن رحلة القيروانيين إلى الكوفة وبغداد كانت تكون غالباً بعد رحلتهم للمدينة، وفي ذلك يروى أن أسد ابن الفرات لما وصل إلى العراق أخذ عنه أبو يوسف موطأ مالك⁽²⁾. كما أنه حينما أتم كتاب الأسدية بمصر وأراد الرحيل للقيروان شعر أهل مصر - آنذاك - بقيمة الأسدية فطلبوا من أسد أن يعطيهم نسخة منها فأبى حتى وصل الأمر إلى القضاء ولم يكن أمام القضاء سبيل سوى رجاء أسد في أن يستجيب لذلك فوافق على إعطائهم نسخة منها⁽³⁾.

ثانيتها: مد الفقه المدني بالطريقة العراقية ورفده بها كمنهج في إيراد المسائل - بعيداً عن الجانب الموضوعي الذي كان يعتمد المدنيون فيه على الحديث والأثر - فأصل الأسدية التي تطورت إلى المدونة كان نابعاً من أسئلة فقه الحنفية التي أخذها أسد عن أبي يوسف مجردة، وذهب إلى ابن القاسم فتلقى عنه أحكامها على مذهب الإمام مالك أو على مذهب ابن القاسم نفسه⁽⁴⁾.

6 - وبعد فهذه لمحة عن «الصلات الفقهية بين القيروان والمدينة المنورة» قد تساعد مع غيرها من بحوث ندوة: «القيروان مركز علمي مالكي بين المشرق والمغرب حتى القرن الخامس للهجرة» في جلاء جوانب الفقه المالكي في القيروان التي التزمت الفقه المالكي وطورته في إطار منهجيتها

(1) راجع بحث الدكتور نقرة عن «ترجمة سحنون مناقبه وسيرته وعلمه» محاضرات ملتقى الإمام سحنون ص 18.

(2) الفكر السامي 95:2.

(3) ترجم أغلبية: 59.

(4) الفكر السامي 95:2.

وطريقتها وهي منهجية حافظت على صورته السنية والأثرية الأصيلة .
وأخيراً فإنني أسأل الله أن يوفق دولة تونس الفتية في جهودها لخدمة
الفقه الاسلامي من خلال مركز الدراسات الاسلامية بالقيروان مع الحمد له
في البدء والختام .

أ.د. خليفة بابكر الحسن

